أهمية التحليل اللغوي في التفسير العلمي للقرآن الكريم

د. فاطمة بوغاري- جامعة علي لونيسي_ البليدة[1]

ملخص:

بعد أن أصبحت الآيات الكونية موضوعا للعلوم الكونية راجت فكرة الإعجاز العلمي، وأصبحت هذه الآيات موضوعا للتفسير العلمي للقرآن الكريم، ومع انصاف بعض الدارسين وإفراط بعضهم في محاولة إثبات التوافق بين القرآن والعلم؛ اتخذ بعض الباحثين اللغة العربية مناطا لإسقاطات علمية على آي القرآن، منها ما ثبتت صحته ومنها مالا تزال قيد التنظير، وبعد تأمل لكيفية استغلال هؤلاء الباحثين للغة لاحظت افتقارا إلى المنهج في التعامل مع اللغة بما يتناسب مع طبيعة النص القرآني، فالكثير من هؤلاء يركز على الدلالة المعجمية مهتمين بالمفردة، متناسين أنّ المفردة القرآنية لا تقبل مرادفا؛ وأن التناسق بين كلّ أنواع الدلالة على مستوى المفردة الواحدة والتركيب، ثم على مستوى الآية الواحدة ثم مجموع آيات الموضوع الواحد هو ما قد يقربنا من مقصدية النص؛ فنحن بحاجة إلى منهج دلالي متكامل يتناسب مع طبيعة الخطاب القرآني من حيث بنيته، ومن حيث منهجه في طرح المفاهيم، خاصة منها التي يكون لها معادل واقعي أو علمي، فإننا لا نجده على مستوى آية واحدة.

Résumé:

Cosmiques versets mentionnés dans le Coran est devenu le sujet de la science cosmique ; et devenus l'objet d'une explication scientifique du Coran.

Certains chercheurs ont pris langue arabe Foundation pour les explications scientifiques des versets du Coran,Exploiter les découvertes et théories scientifiques, certains vrai et certains sont encore dans le processus de recherche et théorisation, Il a été constaté l'absence d'une solide approche en ce qui concerne la langue du texte coranique.

Beaucoup d'entre eux sont intéressés en mettant l'accent sur une sémantique lexicale du mot, Oubliant que le vocabulaire coranique n'accepte pas un synonyme.

Ainsi, nous avons besoin d'une approche intégrée approche sémantique correspond à la nature du discours coranique, se soucie de sa structure et se soucie de son approche de mettre les concepts.

[1] - تاريخ الإيداع:2016/02/21 تاريخ الموافقة:2016/03/08

مقدمة:

إذا كان التفسير هو محاولة للكشف عن معاني ودلالات النص القرآني، فإنّ ذلك يتطلب امتلاك آليات تتناسب مع طبيعة النص من حيث بنيته. ومن حيث إنّ القرآن هو بنية لغوية متكاملة ومتناسقة، فلا بدّ لكلّ مفسر من دراسة اللغة دراسة عميقة تمكنه من الالمام بمستوياتها باعتبارها أول خطوة نحو فهم النص. وفك شفراته ابتداء من أصغر وحداته الصوتية، إلى بنية مفرداته الصرفية، إلى البنى التركيبية والأسلوبية مع إدراك معانى كلّ منها، لما قد يكون له من أثر في تحصيل المعنى بالإضافة إلى دلالة السياق، فمدلول النص ناتج عن مجموع هذه الدلالات الفرعية، وتعتبر دوالها قرائن لغوية ترجح من خلالها المعاني مما يقرب القارئ من مقصدية المخاطب، فإذا كانت محاولة الفهم هذه لا تتعارض مع مدلول النص الناتج عن عملية التحليل اللغوي في علاقتها مع السياق فيمكن أن تحمل على أنها إحدى الأوجه الدلالية للنص.

ولعلنا نجد أنواعا عدة من التفاسير، وتبقى كلها نتاجا لفهم القارئ تختلف باختلاف المرجعيات الفكرية والمعرفية وباختلاف المنهج في التعامل مع النص القرآني. ومن التفاسير الشائعة في عصرنا التفسير العلمي للقرآن الكريم؛ تفسير فرضته طبيعة العصر، كما فرضه استوقاف العلم لنا أمام اشارات قرآنية وحقائق تتعلق بالكون غابت عنا لقلة التدبر.

إنّ السعة التي يحملها مصطلح الدلالة تقتضي قابلية أن يكون المعنى العلمي أحد الأوجه الدلالية للنص خاصة وأن القرآن حمال أوجه ؛ لكن الإشكالية التي لاتزال قائمة هي معايير التعامل مع الطرح العلمي المشار إليه في الآيات الكونية، فرغم الجهود المبذولة في ضبط شروط التفسير العلمي من قبل هيئة الإعجاز العلمي، والتي من بينها الوقوف على لغة النص القرآني وإدراك قواعدها وأساليبها، فإذا توافق مدلول الخطاب اللغوي مع حقيقة علمية تفسير الآية الكونية بها. إلاّ أن نعامل بعض المفسرين العلميين المعاصرين مع جزئيتي الإلمام باللغة و أراء المفسرين تعامل سطحي قد لا يتجاوز العرض لإظهار الالتزام؛ لكن لا نجد ربطا وتحليلا يلم بجميع المستويات اللغوية للنص القرآني وما تعطيه من دلالات،؛ بل نجد المفسر يتخير منها بسطحية ما يثبت التوافق في نظره مع النتائج العلمية حقائق أو نظريات.

إنّ مثل هذا التعامل مع النص القرآني جعلني أتساءل عن أسباب وجود هذه الهوة في الدراسات القرآنية، وأبحث عن دور الباحث اللغوي وسط هذا الحراك العلمي الجديد، خاصة وأن الخطاب القرآني ذو بنية لغوية.

فالهدف من هذا البحث الكشف عن العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الكونية، و إلى أي مدى يمكن تحديد مقصدية الخطاب القرآني الكوني بناء على ما تفرزه مستويات هذه اللغة في إطار السياق الذي جاء به.

1ـ الفرق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي:

يعتبر العلماء المتأخرون طنطاوي، الشعراوي، الرافعي...إخبار القرآن عن الظواهر الكونية ووصفها إعجازا علميا، فالإعجاز العلمي للقرآن الكريم هو ما «بيّن الله في هذا الكتاب، ودلّ عليه من الآيات في السماوات والأرض والأنفس، مما لم يكن ليحيط به علم بشر في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- من تلقاء نفسه، ثم يبقى النّاس يكتشفون أسراره في الكون، والقرآن قد سبق به منذ دهر بعيد تصريحا وتلويحا، كان يتلوه على النّاس نبي أمي، لم يدرس علوم الفضاء ولا البيئة ولا البحار ولا طبقات الأرض ولا الأجنة. ليبنئ العالم أنّه رسول ربّ العالمين، وأنّ هذا القرآن من علم الله الذي أحاط بكل شيء»[1]. إذا كان الإعجاز العلمي هو سبق القرآن إلى ذكر الحقائق الكونية، قبل اكتشافها من طرف العلماء التجريبيين، بما يتوفر لديهم من آليات البحث العلمي التجريبي الدقيق، فإنّ التفسير العلمي «يراد به الكشف عن معان جديدة للآية القرآنية، أو الحديث النبوي في ضوء ما ترجّحت صحته من نظريات للعلوم الكونية، دون إسراف في التأويل، بمعنى أن تكون هذه العلوم في خدمة تفسير القرآن والسنّة مثلما خدمته علوم اللغة في العبارات القرآنية عن الحقائق الكونية عن مدلول يشير إلى مصطلح علمي في مجال معين، ليجري مقاربة بين مدلول الآية والحقيقة العلمية والمدخل.

2ـ شروط التفسير العلمي للقرآن الكريم:

إنّ باستطاعة العلماء «أن يتلمّسوا دلائل إعجازه في شتى المجالات، فإذا كنا بصدد "إعجازه العلمي" تحتم علينا أن نتوخى الدقة التامة، فلا نفتعل مناسبة كأن نتشبث بلفظة ونحملها فوق ما تحتمل، أو نجهل أو نتجاهل حقائق التاريخ، وينبغي أن يكون لنا في الأئمة السابقين أسوة حسنة حين نرى مناهجهم العلمية عندما تناولوا القرآن من نواحيه اللغوية والبلاغية والتشريعية وغيرها»[(2)].

إنّ البحث في الإعجاز العلمي في القرآن، والقول به لابدّ فيه من توفر شروط من بينها:

1- المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله يوسف بن عيملي بن يعقوب، مركز البحوث الإسلامية، بريطانيا، الطبعة الأولى، 2001م، ص: 29.

2- الموسوعة القرآنية المخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الناشر: المجلس الأعلى بالشؤون الإسلامية، مصر، 1423-2007،ص:699.

-اليقين التام بأنّ علم الله هو العلم الشّامل والصّحيح والتّام، وعلم الإنسان مهما بلغ يبقى قاصرا ومعرضا للخطإ.

-لا يمكن أن يقع صدام بين حقائق المضمون وحقائق الوجود، لذلك لا يجب تأويل الآيات الكونية إلاّ بحقائق علمية قطعية، فـ«إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص، ونظرية علمية، رفضت هذه النظرية، لأنّ النّص وحي من الذي أحاط بكلّ شيء علما، وإذا وقع التوافق بينهما كان النّص دليلا على صحة تلك النظرية، وإذا كان النّص ظنّيا، والحقيقة العلمية قطعية يؤوّل النّص بها»[1]، إذا لم تتعارض مع ما تدل عليه اللغة، لأنّ الخطاب القرآني خطاب لغوي بالدرجة الأولى، «فلابدّ من:

أ- أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبّان نزول الوحي، ويراعى كذلك استعمالها.

ب- أن تراعى القواعد النحويّة ودلالاتها.

ج.أن تراعى القواعد البلاغيّة ودلالاتها، خصوصا قاعدة "ألا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية"»[2]، إذن فعلى الباحث في الإعجاز العلمي بالإضافة إلى وجوب تخصصه في مجاله العلمي أن يمتلك كلّ آليات الفعل القرائي اللغوية وغير اللغوية، حتى يبلغ الغاية من بحثه، كما ينبغي الترقيّ في فهم آيات القرآن والكون إلى درجة الفقه حتى ندرك الحكمة وراء إعجازها، ونبلغ درجة الإحسان في قراءة الكتابين: المسطور والمنظور، «أمّا نهاية الإحسان في قراءة آيات القرآن فتعني تجاوز حدود الأصوات والألفاظ، واختراق حاجز الزمان والمكان، وصولا إلى الاستماع من المتكلم الأزلي جل جلاله، وأمّا نهاية الإحسان في قراءة آيات الكون –كتاب الله المنظور- فتعني تجاوز حدود البحث العلمي الآلي بعناصره ووسائله وأدواته واختراقه عالم النظريات والقوانين العلمية بصياغاتها اللفظية، وصولا إلى إدراك أنه كل علم من العلوم الباحثة في ظواهر الكون والحياة، هو في حقيقته علم يبحث بلغته الخاصة عن الله خالق الكون والحياة...»[3]، وليس المقصود بالتجاوز عدم اعتماد هذه الآليات والمناهج، بل النّظر إلى أبعاد هذه المدلولات في الآفاق والأنفس، فهي تحيل في النهاية إلى وحدة الله.

---

[1]- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، الناشر: دار المكتبي، سوريا- دمشق، ط:03، 1426- 2005م، ص: 15.

[2]- المرجع السابق / 699.

[3]- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسّنة،محمد راتب النابلسي، ص: 697.

3. التفسير العلمي لنشأة الكون عند زغلول النجار:

يبدأ زغلول النجار تفسيره لنشأة الكون في كتابه السماء في القرآن تحت عنوان: "خلق السماوات والأرض في القرآن الكريم" النجار في كتابه السّماء في القرآن تحت عنوان: "خلق السّماوات والأرض في القرآن الكريم": «من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة لخّص ربّنا سبحانه وتعالى في صياغة آلية شاملة عملية خلق السّماوات والأرض وإفنائهما وإعادة خلقهما من جديد في خمس آيات من القرآن الكريم على النحو التالي:

1. ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[1].
2. ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].
3. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[3].
4. ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[4].
5. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[5].»[6]

النّجار اختار هذه الآيات بالاعتماد على كيفية الخلق في النّظرية العلمية الفلكية المعاصرة، فاختار الآية الأولى لأنّها تتوافق مع نظرية توسّع الكون، التي تدل على أنّ لهذا الكون بداية، واختار الآية الثانية لأنّها تتوافق مع نظرية الانفجار الأعظم، التي يرى أنّ القرآن يرقى بها إلى مقام الحقيقة العلمية بدليل موافقة دلالة ألفاظها اللغوية لمفهوم هذه النظرية، يقول في الآية ثلاثين من سورة الأنبياء: «والرتق في اللغة عكس الفتق؛ لأنّ الرتق هو الضّم والالتحام والالتئام، سواء كان ذلك طبيعيا أو صناعيا، والفتق لغة: هو الفصل والشّق، والانشطار. و القرآن الكريم هنا يعطي الصّورة الكاملة الجامعة لهذا الحدوث الكوني العظيم، ويترك التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين، الذين يفكرون في خلق السّماوات والأرض، يجعلنا نرتقي بنظرية الانفجار الكوني العظيم إلى مقام الحقيقة، ونكون هنا قد

---

[1] - سورة الذاريات، الآية/47.

[2] - سورة الأنبياء، الآية/30.

[3] - سورة فصلت، الآية/11.

[4] - سورة الأنبياء، الآية/104.

[5] - سورة إبراهيم، الآية/.48

11-السماء في القرآن الكريم،، زغلول راغب محمد االنّجار، الناشر: دار المعرفة، بيروت- لبنان، لطبعة الثالثة، 1426هـ- 2005م، ص:82.

انتصرنا بالقرآن الكريم للعلم المكتسب وليس العكس. وهذا الجرم الابتدائي كان في حالة من الكثافة والحرارة تتوقف عندهما كلّ القوانين الفيزيائيّة المعدومة، ومن ثمّ فإنّ العقل البشري لا يكاد يتصورهما، فانفجر هذا الجرم الأولي بأمر من الله في ظاهرة يسميها العلماء عملية الانفجار الكوني، ويسميها القرآن الكريم باسم الفتق، فقد سبق القرآن الكريم كلّ المعارف الإنسانية بالإشارة إلى ذلك الحدث الكوني العظيم من قبل ألف وأربعمائة من السّنين».

إنّ زغلول النّجار في عرضه للآيات التي يرى بأنّها شاملة لعملية خلق السّماوات والأرض يتجاهل الآية التي تصرح بوجود الماء قبل الخلق، وهذا الأمر معرفته ضرورية لما قد يكون له دور في عملية الخلق.

ما الذي يجعله يرتقي بنظرية الانفجار الأعظم إلى مقام الحقيقة العلمية الموافقة للقرآن؟ هل دلالة لفظتي الرّتق والفتق لغة كافية لإسقاط هذه النّظرية على الآية؟

إنّ عملية بدء الخلق حقيقة لا يمكن تحصيلها من دلالة لفظة أو لفظتين؛ إنّها مفهوم تجتمع جميع العناصر اللغوية في الآيات القرآنية ككلّ التي تدخل في هذا الحقل الدلالي، لتشكل تصورا قريبا من مفهومه الحقيقي باعتبار أنّ هذه العملية لم يشهدها أحد من الخلق؛ لكنّ الكون والخطاب القرآني يتوفران على مؤشرات تقرّب المتدبّر من هذه الحقيقة،

4 -التحليل الدلالي لآيات نشأة الكون في القرآن الكريم:

.قال تعالى: **﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾**[1].

-1- الرتق والفتق في اللغة:

جاء في لسان العرب: «الرّتق إلحام الفتق وإصلاحه، رتقه يرتُقه، يرتِقه رتقا، فارتتق أي التأم، فالرتق ضد الفتق»[2].

أمّا الفتق فقد ذكر ابن فارس أنّ: «الفاء والتاء والقاف أصل صحيح يدل على فتح في شيء من ذلك: فتقت الشيء فتقا، والفتق: شق عصا الجماعة، والفتق الصبح»[1]، فالفتق: الشق كما أجمعت عليه معاجم اللغة العربية[2].

---

[1] - سورة الأنبياء/ 30.

[2] - لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، مادة (ر.ت.ق) (ف.ت.ق).

لقد عبّر القرآن عن صفة ابتداء الخلق بهذين اللفظين المتضادين، فهما يشكلان ثنائية موافقة لثنائية (العدم والوجود)، إذ عبّر عن حالة العدم تلك بالرتق، وعبّر عن الوجود بحالة الفتق، و تجب الإشارة إلى أنّ هذين اللفظين لم يذكرا في القرآن الكريم، إلاّ في هذا الموضع.

ج-2-الرّتق والفتق عند المفسرين القدامى:

لقد تضمّن تفسير الكشاف مجمل القول لما جاء في التفاسير حول مدلول الرّتق والفتق في هذه الآية ، يقول الزمخشري :«فإن قلت الرّتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنّه مصدر فما بال: الفتق ؟

قلت: هو على تقدير موصوف، أي كانتا شيئا رتقا: ومعنى ذلك: أنّ السّماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السّماوات متلاصقات، وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقها الله وفرّج بينهما، وقيل ففتقناهما بالمطر والنبات بعدما كانت معتمة»[3].

في هذا التفسير إشارة إلى عدول القرآن عن استخدام اسم المفعول (مرتوقتين) إلى استعمال المصدر "الرّتق"، الذي كانت وظيفته النحويّة في الآية خبرا لكان، «والمعنى: كانتا ذواتي رتق»[4]. ويمكن استقراء عدّة دلالات من هذا العدول، فلو استخدم (مرتوقتين) لكانتا مفعولتين –أي مخلوقتين- وعامل الزّمن يتخللهما؛ أي أنّ هذا الفتق تمّ بعد خلقهما، ويصبح معنى الفتق مقتصرا على فتق السّماوات سبعا، وكذلك الأرضون؛ أو المعنى الثاني فتقهما بالمطر والنبات، وهو المعنى الذي جاء عن عبد الله بن عباس المعروف بترجمان القرآن، حين سئل عن هذه الآية[5].

أمّا التعبير بالمصدر -رتقا- فبالإضافة إلى كونه يمكن أن يقع موقع اسم المفعول، فهو موافق لحالة العدم التي كانت عليها السّماوات والأرض، كون المصدر يدل على حدث مجرد من الزمن، فهذا الاستخدام موافق لحالة العدم التي كان عليها الكون قبل خلقهما، وعملية الخلق بدأت بفعل الفتق، واستعمال المصدر يحتمل جميع الدلالات.

---

[1]- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر، 1399هـ-19794مادة (ف ت ق).

[2]- ينظر: لسان العرب، مادة (ف.ت.ق).

[3]- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالث- 1407هـ، ج 113/03.

[4]- إعراب القرآن الكريم وبيانه، أبو جعفر النحاس، وضع حواشيه وعلّق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشوران دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ، ج 45/3.

[5]- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات ،دار الفكر، بيروت ، الطبعة الأولى، 1996م ،ج 15/2.

من خلال ما سبق يعطي المفسرون معنى الفصل للفظة الفتق، وهو على ثلاثة أشكال:

الشكل الأول: الفصل بين السّماء والأرض.

الشكل الثاني: وهو الذي حدث للأرض، وهو فتق اليابس الذي كان كتلة واحدة إلى سبع أراض، أي سبع قارات تتخللها البحار والمحيطات ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ...**﴾[1].

وهو الذي حدث للسّماء في يومها كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)** ﴾[2].

الشّكل الثالث: وهو الذي تمّ للسّماء بإنزال المطر منها وللأرض بإنزاله عليها، وإخراج النّبات، وقد عبّر عنه القرآن في سورة الطارق بقوله تعالى:﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ(12)** ﴾[3].

2-2- دلالة الأصوات والصيغ الصرفية:

أ- الفرق بين الفصل والفتق:

رغم أنّ المفسرين يحملون معنى الفصل على معنى الفتق إلاّ أنّ هناك فرقا دقيقا بين لفظتي الفصل والفتق وضحه أبو هلال العسكري في كتابه "الفروق اللغوية"، حيث يقول: «إنّ الفتق بين الشيئين اللذين كانا ملتئمين أحدهما متصل بالآخر فغدا بينهما فتقا، وإن كان الشيء، واحدا ففرّق بعضه عن بعض قيل قطع وفصل وشقّ، ولم يقل فتق، وفي القرآن (كانتا رتقا ففتقناهما)»[4].

إنّ الفرق بين الفصل والفتق من النّاحية المعجمية لا ينفي العلاقة الدلالية بينهما، وهي علاقة الجزء بالكل، من حيث إنّ الفصل هو كلّ فرجة تقع في الشيء سواء عن طريق القطع أو الشّق،

---

[1]- سورة الرعد/04.

[2]- سورة فصلت/ 11-12.

[3]- سورة عبس/26.

[4]- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، ج 152/1.

فتجعله أجزاء يمكن رتقها، ومن ثمّ فكلّ فصل يمكن أن يكون فتقا، لكن ليس كل فتق فصل من حيث إنّ الفتق يستلزم وجود شيئين ملتصقين.

ويمكن إرجاع هذا الاشتراك الجزئي في الدلالة بين الفصل والفتق إلى التركيب الصوتي للفظين، فكلاهما يبدأ بحرف الفاء، وهو حرف يعطي دلالة الانفتاح في كلّ جذر ثلاثي يبدأ به؛ لأنّ الفاء «أغلب أحواله الدلالة على الإبانة والوضوح إذا وقع في أول الكلمة، مثل: فتح، فضح، فرج، فلق، فجّر، فسّر...»[1].

وهذه المشاكلة بين الألفاظ ودلالة أصواتها من خصائص الصوت نفسه[2]، من حيث الشّدة والليونة، فكلّ حدث تشكل ألفاظه أصوات تتناسب مع معناه، ويمكن من خلالها تحديد الفوارق الدقيقة بين ما تشابه من الألفاظ؛ لأنّ التغير في المعنى مرده التغير في المبنى، ولو على مستوى الكلمة الواحدة

انطلاقا مما سبق يمكن القول إنّ الفوارق الصوتية بين اللفظين تؤكد الفرق الدلالي بينهما، ويمكن القول إنّ السماوات والأرض لم تكن شيئا واحدا، وإن كانتا ملتصقتين لا فرج بينهما، ثم ما الدليل في الآية أنّ الفتق حاصل بينهما؟ فلما لا يكون فتقهما _فعل الفتق_ قد تم من المادة التي سبقت وجودهما خاصة وأنّ الجملة التي جاءت بعد فعل الفتق ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾؟

ب- العلاقة بين الرتق والفتق:

أمّا فيما يخص لفظتي "الرتق" و"الفتق"، فإنّ التركيب الصوتي لهما جد متقارب، فهما من النّاحية البديعية يشكلان جناسا ناقصا، الاختلاف في فاء الجذر فقط، أمّا عينه ولامه فتتفقان من حيث الجنس والترتيب، وفي هذا أيضا مشاكلة للمعنى، وقد تحدّث عن ذلك ابن جني في كتابه الخصائص في باب امساس الألفاظ أشباه المعاني، حيث قال: «وذلك أنّهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبّر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب»[3].

وسنحاول التماس هذه القاعدة الصوتية في بناء الألفاظ، من خلال لفظتي، "رتق"،و" فتق".

ذكرنا سابقا دلالة أصوات "الفتق" وبالنسبة ل "رتقا " فهي كالآتي:

---

[1]- الدلالة الصوتية في اللغة العربية، صالح سليم عبد القادر الفاخري، الناشر: المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، ص: 152.

[2]- المرجع نفسه، ص: 152، وينظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، ج 162/2.

[3]- الخصائص، ابن جني ج 164/02.

الراء: يدل على التكرار وديمومة الحدث[1].

التاء: الدلالة على القطع.

القاف: تدل على الانفصال والقطع والاصطدام[2].

بجمع دلالتها، ثم جمع دلالة أصوات الفتق نحصل على ما لي:

ر+ت + ق

تكرار + قطع + الانفصال أو القطع=إلحام الفتق=الرتق

ف + ت + ق

إبانة + قطع + القطع أو الاصطدام = فتق

إذن مدلول كلّ من الكلمتين هو حاصل جمع دلالة الحروف المشكّلة لكلّ لفظ، وهذا المدلول لا يخرج عن المعنى المعجمي للفظين، وهذا نابع من طبيعة هذه اللغة، يقول محمد مبارك: «إنّ للحرف الواحد في تركيب الكلمة العربية قيمة تعبيرية، وأنّ الكلمة الثلاثية تعبر عن معنى هو ملتقي معاني حروفها الثلاثة وتمازجها وتداخلها، كأن تقول مثلا أنّ (غ.ر.ق) يحصل معناها في تلاقي معاني حروفها، فالعين تدل على غيبة الجسم في الماء، والراء تدل على التكرار والاستمرار في سقوطه، والقاف تدل على اصطدام الجسم في قعر الماء، والمعنى الإجمالي الحاصل من اجتماع المعاني الجزئية للحروف وهو مفهوم مادة (غرق)»[3]، إنّ القيمة التعبيرية للحرف في العربية حاصلة من الانسجام التام بين مخرج الحرف وصفته مما يولد جرسا موسيقيا يلقي بظلاله الدلالية على الكلمة؛ وهذا «ما لاحظه علماؤنا من مناسبة حروف العربية لمعانيها، وما لمحوه في الحرف العربي من القيمة التعبيرية الموحية، إذ لم يعنهم من كلّ حرف أنّه صوت وإنّما عناهم من صوت هذا الحرف أنّه معبّر عن غرض، وإنّ الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية، التي يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوال المعبرة، فكلّ حرف منها يستقل ببيان معنى خاص، مادام يستقل بإحداث صوت معين، وكلّ حرف له ظل وإشعاع إذ كان لكلّ حرف

[1] - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، دت، دط، ص:101.

[2] - المرجع نفسه.

[3] - فقه اللغة وخصائص العربية/ 105.

صدى وإيقاع»[1]، وبين الرتق والفتق فارق صوتي واحد أعطى لكلّ منهما دلالة مقابلة للآخر، ويعتبر كلّ من الراء والفاء فونيمين؛ لأنّ وضع أحدهما مكان الآخر يحدث تغييرا دلاليا.

أمّا بالنسبة للتاء والقاف، فإنّ ترتيبها يتناسب مع ما تدلان عليه من أحداث وما يدل عليه اللفظان في الآية. فالتاء بالإضافة إلى دلالتها على القطع إذا توسطت الكلمة، فهي تدل على الاضطراب في الطبيعة[2]، هذا الاضطراب الذي يعكسه تنوع صفاتها، فهي حرف شديد، استفالي، انفتاحي، مهموس، إطباقي، وما يؤكد دلالة التاء على الاضطراب أنّ معظم الآيات التي تنتهي بها في القرآن الكريم، تحمل في مضمونها هذه الدلالة، مثل الآيات الأولى من سورة الانفطار ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)**﴾[3].

لقد جاءت التاء عينا في اللفظين "رتق"، و"فتق"، وإلحام الفتق لابدّ فيه من لصق الشيء بالشيء إلصاقا وليس تماسا فقط، واللصق فيه من الحركة ما يولد ارتدادا، أي اضطرابا، والحركة ذاتها يقتضيها الفصل بين الشيئين الملتصقين، أمّا توسطها للفظين، فلأنها من حيث الصفة والمدلول تتناسب مع ما قبلها وما بعدها من الأصوات.

وفيما يخص حرف القاف، فهي «صوت لهوي مجهور، قوي ينسجم مع الشّدة»[4]، ومعنى الشّدة يتناسب مع إلحام الفتق، وشق الرتق، ومجيئها في آخر اللفظين يلقي إيقاعا يوحي بحسم الأمر، وهو نفسه الصوت "ق" إذا اصطدم الجسمان، أو فصلا عن بعضهما، وقد قال عنها ابن سينا في رسالته (أسباب حدوث الحروف) في سياق حديثه عن سماع الحروف من حركات غير نطقية: «ومن ذلك أنّ القاف قد تسمع من شقّ الأجسام وقلعها دفعة واحدة»[5]، ومن هذا المصدر الطبيعي تكتسي القاف قوتها وجرسها؛ وأينما كان موقعها في اللفظ فهي تدل على قوة فيه، كما يختص كلّ حرف في العربية بمعنى له أثر سمعي في الطبيعة، «وتدل الظاهرة على ما في العربية من الخصائص إن لم يكن دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه، ويثير في التفس جوا يهيئ لقول المعنى ويوجه إليه ويوحي له»[6]، ويظهر هذا

---

[1]- دراسات في فقه اللغة صبحي إبراهيم الصالح، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى،1379هـ- 1960، ص:142

[2]-.المرجع نفسه.

[3]- سورة الانفطار/ 01-04

[4]- الدلالة الصوتية في اللغة العربية، صالح الفاخري، 142.

[5]- رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ص:93-97.

[6]- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك 261.

بدقة في النّص القرآني، لأنّه النّص الوحيد، الذي كلّ لفظ فيه موضوع لدلالة مقصودة، لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر، ولو كان هذا الأخير مرادفا له.

إذن من خلال الدلالة الصوتية والصرفية للفظتي "رتقا"، "فتقناهما" ، نقول إنّ هذا الاستعمال مقصود بحقيقته، وليس مجازا للتعبير عن الإيجاد، فيما يخص الفتق كما جاء في بعض التفاسير[1]، وإن كان المدلول العام للآية يتضمن وصفا لكيفية إيجاد السّماوات والأرض -أي خلقها- فالإيجاد مفهوم ننتهي إليه من خلال المستوى الدلالي العام للآية، والذي تشترك في تشكيله جملة من الكلمات المفتاحية التي تدخل ضمن حقل دلالي واحد هو الوجود، كالسّماوات والأرض، والرتق والفتق، والجعل، والماء والحياة، والإيمان... بالإضافة إلى العلاقات الدلالية التي تربط بين هذه التعابير، وكيفية ترتيبها في الآية.

3- دلالة التركيب والنظم :

3-1- دلالة التركيب على مرحلة ما قبل الخلق:

إنّ الأسئلة الوجودية التي قد تؤرق الإنسان لا يكفي النظر إلى هذا الكون لمعرفة الإجابة عنها؛ لأنّ بعضا منها غير مرئي، ولم يُشهد الله عليه أحدا، لكن كيفية تركيب الكلمات ونظمها في القرآن كفيل بأن يعطي للإنسان الصورة المعقولة لكيفية وجود هذه الموجودات، خاصة وأنّ التعبير القرآني يعكس الرؤية الإلهية لهذا الكون وفق منهج تكاملي بين العناصر الكونية، والعناصر اللغوية، لذلك لا يمكن الوصول إلى ملامح هذه الرؤيةإلاّ بمعرفة معاني هذه العناصر اللغوية في إطارها التركيبي.

وسنحاول البحث عن إجابة لبعض الأسئلة الوجودية من خلال دلالة التركيب والنظم، ولعلّ أول سؤال يطرق أذهاننا هو: ماذا كان يوجد قبل خلق السّماوات والأرض؟

يجيب الله تبارك وتعالى عن هذا بقوله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾[2].

وجاء في الصحيحين على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض»[3].

---

[1]- ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ .ج34/09. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ، ج 55/17.

2- سورة هود، الآية/07.

3- صحيح البخاري محمد بن إسماعيل البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ ، كتاب بدء الخلق/ 650.

نستقرئ من الآية أنّ العرش والماء سبق وجودهما خلق السّماوات والأرض، ومن الحديث الشريف بالإضافة إلى العرش والماء، القلم واللوح بدلالة قوله صلى الله عليه وسلم: (كتب في الذكر كلّ شيء).

جملة «وكان عرشه على الماء» في سياق بيان عظيم قدرته سبحانه وتعالى «وهو الذي خلق السّماوات والأرض في ستة أيام»، إنّ الجملة «وكان عرشه على الماء» بسيطة من حيث التركيب، «كان» واسمها «عرشه» وخبرها «على الماء» جاءت بعد واو الحال تفيد الإخبار عن حال عرش الرحمن قبل الخلق، ومن المفسرين[1] من رأى بجواز كونها اعتراضية، وسواء كانت حالية أو اعتراضية الغرض واحد هو التوضيح والتقرير.

أمّا بالنسبة لكان «فالمضي المستفاد منها بالنسبة للحكم –خلق السّماوات والأرض- لا للمتكلم، أي كان عرشه على الماء قبل خلقها، وهو الذي يقتضيه كلام مجاهد وبه صرّح القاضي البيضاوي، ثم قال: لم يكن حائلا بينهما أي العرش والماء، لا أنّه كان موضوعا على متن الماء، واستدلّ به على إمكان الخلاء، وأنّ الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم»[2]، إذن فالعلاقة هنا بين خلق السّماوات والأرض وبين العرش ولّدت نوعين من الدلالة: دلالة زمانية ودلالة مكانية، الدلالة الزمانية تتمثل في أسبقية وجود العرش، وكانت القرينة الدالة على ذلك مجيء كان فعلا ماضيا؛ أمّا الدلالة المكانية فالاستعلاء المستفاد من حرف الجر (على) حيث رسم مشهدا تصويريا لوضع العرش على الماء، وعلاقة العرش بالماء جعلت هذا الأخير -الماء- يحمل البعدين الزماني والمكاني، وأصبحت هذه الجملة داخل هذا السياق دليلا على وجود هذا العنصر الحيوي قبل خلق السّماوات والأرض.

وكلُّ التفاسير لا تخرج عن هذا المعنى القاضي بأنّ: «العرش مخلوق قبل ذلك، وأن الماء مخلوق قبل السّماوات والأرض، وتفصيل ذلك وكيفية الاستعلاء مما لا قبل للأفهام به...»[3]، أي أنّها من الأمور الغيبية التي يبقى سرها عند خالقها.

بما أنّ هذه الجملة بسيطة ليس فيها تقديم ولا تأخير، لا حذف ولا تمثيل، فهي غير قابلة للتأويل، كما أنّها وردت بنفس التركيب في الحديث الشريف، ألا يعد ذلك تكرارا في الوحي الإلهي؟

1- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،ج07/12.
2- روح المعاني، الألوسي،ج 205/06.
3-المرجع السابق.

والتكرار في العربية أحد أساليب التوكيد. فوجود الماء قبل خلق السّماوات والأرض هو الحقيقة الكونية التي يقرها القرآن والسنة النبوية.

هذا في المرحلة التي سبقت الخلق.

أمّا فيما يتعلق بعملية الخلق فقد ذكر الماء في الآية التي تصف كيفية ابتداء الخلق، في قوله تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) ﴾**[1].

لقد علّق الماء في هذه الآية بفعل من أفعال التحويل، وهو "جعلنا" وهذا الفعل في هذه الآية يحمل دلالتي الخلق والتصيير؛ لأنّ إعراب هذه الجملة من الآية يحتمل وجهين: «(وجعلنا من الماء كلّ شيء حي أفلا يؤمنون)، وجعلنا: عطف على ما تقدم، وجعلنا فعل وفاعل بمعني خلق، ومن الماء متعلقان بجعلنا لأنّها بمعنى خلقنا، أو بمحذوف حال من كلّ شيء؛ لأنّه كان في الأصل وصفا له، فلما قُدّم عليه نصب على الحال، ولك أن تجعل وجعلنا بمعنى صيّر، متعديا لاثنين فيكون من الماء في محل نصب على أنه مفعول ثان، وكلّ شيء مفعول أول...»[2]، والمقصود بمحذوف حال من كلّ شيء، لأنّ تقدير الكلام كيف جعل كلّ شيء حيّ؟ وجوابه: (من الماء). ولا شك أنّ في هذا التقديم غاية مقصودة تبدو لي في ظاهرها موافقة ترتيب الأحوال و المفعولات للموجودات. أي بما أنّ الماء موجود قبل خلق السّماوات والأرض، جاء مقدما في التعبير على كلّ شيء، فمنه كانت بداية الخلق، ومنه كانت الحياة، ويعزّز هذا المعنى دلالة من على ابتداء[3] الغاية[4] دون فساد دلالتها على السببية خاصة وأنّها جاءت عاملة في الماء.

ويقول أبو السعود (ت **982هـ**) في دلالة هذه الآية: «(وجعلنا من الماء كلّ شيء حي) أي خلقنا من الماء كلّ حيوان كقوله تعالى: «والله خلق كل دابة من ماء»، وذلك لأنّه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به، أو صيّرنا كلّ شيء حي من الماء أي بسبب منه لا بد له من ذلك، وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به لا لمجرد أنّ المفعولين في الأصل مبتدأ وخبر، وحق الخبر عند كونه ظرفا

1- سورة الأنبياء، الآية/30.

2- إعراب القرآن وبيانه، محي الدين بن أحمد درويش ، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص- سوريا، الطبعة الرابعة،ج 304/6.

3- التحرير والتنوير، ابن عاشور،ج56/17، ينظر: روح المعاني، الألوسي،09 /35.

4- معاني النحو،ج 65/03.

أن يتقدم على المبتدأ، فإنّ ذلك مصحح محض لا مرجح، وقرئ حيّا على أنّه صفة كلّ أو مفعول ثان، والظرف كما في الوجه الأول قدّم على المفعول للاهتمام به والتشوق إلى المؤخر»[1].

إنّ هذا التفسير وإن كان لا يرى في تقديم الخبر على المبتدأ وجوبا إذا كان شبه جملة السبب الوحيد في تقديم (من الماء)؛ إلاّ أنّه يشير إلى علاقة الظاهرة النحوية بالظاهرة الكونية في القرآن الكريم، فما كان مقدما في الوجود جاء مقدما وجوبا في التعبير. أمّا بالنسبة لـ: "حيّ" فكونها صفة أقرب إلى المعنى من كونها مفعولا ثانيا، لأنّها تتوافق مع دلالة جعلنا على الخلق والتصيير، فإذا قرأنا الجملة بدونها – وجعلنا من الماء كلّ شيء- يصبح جعلنا بمعنى خلقا من الماء كلّ شيء -ابتداءً- خلق تكوين، وقد قال في محكم تنزيله: ﴿**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**﴾[2]، **وقال: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۝﴾**[3].

أمّا إذا أضيفت حيّ على أنّها صفة فتضيف إلى المعنى السّابق دلالة السّببية، ونحويا الصفة من المتممات، أمّا المفعولات فهي من العناصر الأساسية، وإعراب (حيّ) مفعولا ثانيا يعطي جعلنا دلالة التصيير فقط.

ولقد ذكر العكبري (ت **616هـ**) كلّ أوجه إعراب هذه الجملة، حيث قال: «(وجعلنا) أي وخلقنا، والمفعول (كلّ شيء)، و(حيّ) صفة، (من) لابْتِداء الغاية، ويجوز أن يكون صفة لكلّ ما تقدّم عليه فصار حالا، ويجوز أن يكون جعل بمعنى صيّر، فيكون "من الماء" مفعولا ثانيا، ويقرأ حيّا على أن يكون صفة لـ "كلّ" أو مفعولا ثانيا»[4]. إنّ تعدد أوجه الإعراب في هذا الجزء من الآية يزيد من القيمة الدلالية للنص، فكلّ عنصر لغوي في علاقته مع الآخر يشكل مفهوما قرآنيا لكيفية الخلق في أحد مظاهرها؛ فالوقوف على الفعل "جعلنا" يعطي صورتين للخلق بحسب عملها فيما بعدها، والمرونة التي تميز هذه اللغة والتي تظهر على المستوى التركيبي تسمح بالانفتاح الدلالي للنّص القرآني.

ومجمل القول في هذا التعبير أنّ الله سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية -**30** من سورة الأنبياء- باستفهام إنكاري موجه إلى الكفار –أصحاب العلم في مجال الكونيات- معبرا عن حال السّماوات والأرض قبل الخلق برتق وهو مصدر لغوي يقابله في الوجود قبل الخلق مصدر كوني وهو الماء، ولا أظن أنّ الله جمع بين ذكرهما –رتقا والماء- في هذا الموضع جمع تقرير أو ترتيب أفعال خاصة وأنّ الرابط بين الجملتين الواو.

---

[1]- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج 65/06.

[2]- سورة المرسلات، الآية/20.

[3]- سورة الطارق، الآية/06.

[4]- التبيان في إعراب القرآن،ج 917/02.

صحيح أنّ الماء مصدر حياة الكائنات الحية، وهذه الأخيرة خلقها لم يكن متزامنا مع خلق السّماوات والأرض لحظة البدء، بل بالنسبة لتهيئة الأرض كان ذلك بعد يومين من الخلق كما جاء في سورة فصلت: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**﴾[1].

فلما لم يستخدم القرآن "ثم" بدل الواو لو كان المقصود بعبارة: «وجعلنا من الماء كلّ شيء حي»: (خلقنا من الماء كلّ حيوان) كما جاء في التفاسير: «وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون زيادة استدلال لما هو أظهر لرؤية الأبصار، وفيه عبرة للنّاس في أكثر أحواله، وهو عبرة للمتأملين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات، وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان فإنّه لا يتكوّن إلاّ من الرطوبة ولا يعيش إلاّ ملابسا لها فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة»[2]، فعلى أيّ أساس يفسر الشيء الحيّ في هذا الموضع بالحيوان؟ خاصة وأنّ سياق الآية لم يذكر فيه خلق شيء من ذوات الأرواح من الكائنات الحيّة عموما، فالآيات التي جاءت بعدها تعرض ما فعله الله بالسّماوات والأرض بعد الفتق، أيّ تسويتهما، يقول تبارك وتعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[3].

إذن ما دلالة "كلّ شيء" في الآية ثلاثين من سورة الأنبياء؟ هل يمكن أن يدخل ضمن هذا الكل السّماوات والأرض؟ خاصة وأنّ دلالة (كلّ شيء) متعلقة بدلالة "حيّ" ولا تقف هذه الكلمة عند ذوات الأرواح من الكائنات، بل يُعبر بها عن كلّ موجود «فما موجود إلاّ وهو حيّ، لأنّ وجوده عين حياته»[4]، وتختلف قيمة الحياة في الأشياء لذلك جعلت للعناصر في الوجود مراتب، وقد يقول قائل إنّ هذا المعنى فلسفي، أقول "حيّ" تطلق في اللغة على الطريق البيّن[5]، أفلا يمكن أن يكون لمعنى البينونة – الظهور- الذي تتضمنه كلمة حيّ علاقة بين الماء والسّماوات والأرض وإظهارها كعالم مجسد للوجود؟

ومن خلال التحليل اللغوي للتعبير القرآني في آيات خلق السّماوات والأرض نخلص إلى ما يأتي:

---

[1]- سورة فصلت / 09-10.

[2]- التحرير والتنوير، ج65/17.

[3]- سورة الأنبياء / 31-32-33.

[4]- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 724/1.

[5]_ تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، القاهرة، د.ت.

أولا: على مستوى الكلمة الواحدة أو اللفظ: تشترك دلالة جذرها الثلاثي وبناؤها في تشكيل صورة معنوية مطابقة للصورة الحسية للظاهرة الكونية.

ثانيا: على مستوى التركيب: يكشف التركيب في التعبير القرآني عن مراحل تشكل هذه الظواهر وكيفية ذلك، ويعتمد القرآن على الأسلوب الإخباري بالنسبة للمراحل التي لم يشهدها الإنسان، وبهذا الأسلوب يدعونا القرآن إلى التسليم بهذه الحقائق، والأخذ بها كمسلمات كونية، يجب الانطلاق منها في عملية تفعيل العقل البشري، أمّا عمليات التخليق فيعبر عنها غالبا بالاستفهام الإنكاري قصد إقرار البشر بحقيقة هذه الظواهر، وحتى يكون إقرارهم حجة على أنفسهم.

إنّ انطلاق هؤلاء الباحثين من الزاويّة الشّخصيّة –علميّة أو مذهبيّة أو عقائديّة- لفهم النّص القرآني لا يعطي للنّص حقه من الدلالة التي يجب الانطلاق في تحديدها من الزاوية القرآنية التي تجمع بين المنهج التكاملي والتّناسق التعبيري في عرض الحقائق، ويكون ذلك انطلاقا من الطبيعة اللغوية لهذا الخطاب، ثم من المفاهيم القرآنية للمصطلحات الكونية في القرآن الكريم، ولا يكون ذلك إلاّ بالكشف عن كلّ العلاقات اللغوية على مستوى الآية الواحدة، ثم الكشف عن العلاقات المعنوية على مستوى جملة من الآيات تتناول موضوعا واحدا، فإلى أي مدى يشكّل مفهوم نظرية الانفجار الأعظم مدلولا لآية بدء الخلق في القرآن الكريم؟

يقول منير العلي في مفهوم هذه النظريّة: «هذا هو الانفجار الأعظم *Big bang*، حيث كان الكون كتلة واحدة متماسكة تسمى التفردية *Singularity* (وهي حالة الكتلة اللامتناهية والحجم صفر)، وانفجر مكونا الأجرام»[1]. وقال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)**﴾[2]. ويقول النّجار: «هذه الآية الكريمة واضحة الدلالة على أنّ الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية، بدأ خلقه من جرم ابتدائي واحد (مرحلة الرتق)، وهو القادر على كلّ شيء، ثم أمر الله تعالى بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق (مرحلة الفتق)، وتحوّل إلى سحابة من الدخان (مرحلة الدخان)، وخلق الله تعالى من هذا الدخان كلا من الأرض والسّماء؛ أي جميع أجرام السّماء وما ينتشر بينها من مختلف صور المادة والطاقة مما نعلم وما لا نعلم»[3].من خلال هذه الأقوال يمكن مناقشة نظرية الانفجار الأعظم في النقاط الآتية:

---

[1]- التفسير العلمي للقرآن الكريم، منير العلي/47.

[2]- سورة الأنبياء، الآية/30.

[3]- السماء في القرآن الكريم/95.

أ- القول بالتفردية التي تعني اللاشيء اللامتناهي في الثقل، والذي يساوي بالمفهوم العلمي الجرم الابتدائي على حدّ تعبير علمائنا المحدثين. وإذا كان مدلول الرتق هو التحام الفتق والتئامه، فما الذي كان مرتتقا في هذا الجرم المجهول المادة، أو المنعدم المادة بتعبيرهم اللاشيء؟!

ب- التعبير عن نشوء الكون في النظرية العلمية المعاصرة بالانفجار، وإسقاط هذه الظاهرة الغير المشهودة، والمتوصل إليها بقوانين فيزيائية تنعدم عندها، مما لا يمكن للعقل البشري تصوره، أمر يتناقض مع المنطق العقلي، فما مصداقية الحقائق العلمية التي تتناقض مع المنطق؟!

ج- إذا كان فناء الكون بالحسابات العلمية ذاتها، سيكون بنفس الطريقة «السّحق الأعظم *(Big grunch)*، حيث ينهار الكون وينكمش نحو الفناء عندما تصل كثافته وينتهي بما يسمى ثقبا أسودا موحدا، أو تفردية الثقب الأسود *(Block holesingularity)* أو تفردية السّحق الأعظم، حالة التفردية هي عندما يكون الحجم صفرا والكثافة لامتناهية»[1].

فهل يقبل التعبير القرآني الانكماش مرادفا للرتق؟ هل يقبل التعبير القرآني الانفجار مرادفا للفتق؟ إذا كان الفتق بدلالته الدقيقة تجاوز معنى الفصل إلى وجوب وجود شيئين ملتصقين إحداث فرجة بينهما هو الفتق، ولا يكون في الشّيء الواحد، فأين هذين الشيئين من كُنهِ هذا الجرم الأولي غير المعروف عند علماء الكونيات حتى يفسّر انفجاره على أنّه فتق؟

ومن النّاحية العلمية، يقول منير العلي: «إنّ نظرية الانفجار الأعظم هي السّائدة حاليا حول نشوء الكون، بدءًا من حالة التفردية الأولى *(Initial singularity)*، ولكنّها ظلت عاجزة عن تفسير الكثير، كالإجابة عن السّؤال حول ما قبل نشوء الكون، هذا مع علمنا بأنّ حالة التفردية الأولى، وكذلك حالة التفردية الأخيرة عند فناء الكون، هما من المقتضيات الحسابية الرياضية لهذه النظرية، ولكنّهما نقائض لا منطقية، فكيف تكون هناك حالة اللاشيء التي حجمها صفر، وكتلتها لانهائية (بقدر كتلة الكون أقلّها) يتكون منها الكون الذي في النهاية سيعود إلى تلك الحالة اللاشيئية ذات الكتلة اللانهائية؟»[2]. كيف يمكن إذاً التعامل مع نظرية تتناقض مع المنطق العلمي في جوهرها كحقيقة علمية ونفسّر بها آية قرآنية؟

إنّ مشكلة هذه النظرية تجاهلها للمادة التي سبق وجودها خلق الكون، والتي صرَّح بها القرآن: «وكان عرشه على الماء»، و بالإضافة إلى ذلك تعامل المفسرين المحدثين مع الدلالة اللغوية للمفردة القرآنية تعاملا سطحيا، إذ يأخذون من المعاني المعجمية للفظة ما يتناسب مع نظرياتهم العلمية، والمفردة

[1]- التفسير العلمي للقرآن الكريم. منير العلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط.الأولى، 1434هـ/ 2013م، ص58.

[2]- التفسير العلمي للقرآن الكريم/50.

القرآنية إذا كانت تشير إلى حقيقة علمية لا بدّ من الرجوع إلى المحاور الأساسية لاختيارها، وهي أصلها الاشتقاقي، وبنيتها الصرفية، ودلالة أصواتها، لأنّ القرآن دقيق في تعابيره؛ فإذا ما تضمنت الآية إشارة إلى حقيقة علمية فإنّه يقدم مصطلحات وليس مفردات تقبل مرادفا، سواء من داخل النّص القرآني أو من خارجه؛ فـ: «كلّ لفظة من ألفاظ القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا نجد فيه ترادفا، بل كلّ كلمة تحمل إليك معنى جديدا»[1]. فالتّرادف وإن كان موجودا في اللغة فهذا لا يعني وجود في السياق القرآني، فهناك مقصديّة في الاستخدام تمنع أن يقوم لفظ مقام آخر، وهو ما يؤكّده عدم استخدام القرآن للفظتي الرّتق والفتق منفصلتين أو مجتمعتين في أيّ موضع آخر من القرآن يحمل دلالة الفصل أو القطع، أو الانشطار أو الانشقاق، أو الالتحام... وهو مؤشّر على عدم تكرار الظاهرة مما يعني أنّ الآية ثلاثين من سورة الأنبياء بكلّ عناصرها الدلالية تعطي المشهد الأول لعملية بدء الخلق، وتصبح دلالة الفتق على وجوب اتصال شيئين لإحداث الفتق، تجعلنا نطرح سؤالا: مِمَ فتقت الأرض والسّماء؟ أمن بعضهم أم كانتا ملتصقتين بشيء آخر هو مصدر الخلق، وفتقتا منه بإرادة المولى عزَّ وجلَّ؟ ألهذا علاقة بذكر الماء في الجملة التي بعد فعل الفتق؟ ولاحظنا في الفصل الثاني أنّ الرابط بين الجملتين حرف الواو، والواو وإن أفاد العطف فهو لا يفيد الترتيب، وهذا المعنى لا بدّ وأن تكون له علاقة مع حقيقة وجود الماء قبل الخلق.

وإذا عدنا إلى قوله تعالى: ﴿ **وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ** ﴾[2]، وجدناها تحتمل المعنيين لتعدد أوجه إعرابها كما رأينا في الفصل الثاني، ولنتأمل دلالة هذا التركيب عنصرا عنصرا، ونحاول الربط بين ما يعطينا من مفهوم، وبين حقيقة وجود الماء قبل الخلق.

الواو: تفيد الربط لا الترتيب.

جعلنا: تحتمل معنى الخلق والتصيير.

من :تفيد ابتداء الغاية.

الماء: مع عامله متعلقان بجعلنا إذا كانت بمعنى خلقنا، وإذا كانت بمعنى صيرنا يكونان مفعولا ثانيا، والمهم هو ذكر الماء مقدما على شيء موافق لأسبقية وجوده على الخلق.

كلّ شيء: دلالة (كلّ) على الاستغراق؛ قد تدخل ضمن دلالة الشيء السّماوات والأرض، بما أنّ الشيء يطلق على كلّ ما له ماهية يعرف بها عن طريق الحواس.

1- الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق/222.

2- سورة الأنبياء، الآية30.

حيّ: تدل على كلّ ما هو موجود، وليس كلّ حيوان (ما كان بالتناسل) فقط، والذي يؤكّد هذا المعنى الربط بين فعل "الفتق" والفعل "جعلنا" بالواو لأنّه لو أراد بها المعنى السابق لاستخدم "ثم" لأنّها أدل على الترتيب، وعلى الفارق الزمني بين خلق السّماوات والأرض، وبين خلق الكائنات الحية، ويؤكد هذه الدلالة سياق الآية، لأنّه من خصائص البيان القرآني التناسب بين آياته وسوره، ولم يذكر في الآية التي بعدها ما تعلّق بخلق النبات أو الحيوان أو الإنسان.

يمكن القول إنّ هذا التعبير يدلّ على تعلّق الماء بخلق السّماوات والأرض في هذه الآية، وإلاّ لماذا ذكر الماء قبل الخلق؟ وذكر الماء مع الكيفية التي حدث بها الخلق، وعلّقه بفعل بمعنى الخلق -جعلنا- وهو أنسب في هذا الموضع من فعل الخلق، لأنّه جاء في سياق عرض تحول السّماوات والأرض من حالة العدم إلى حالة الوجود، ألا يمكن القول إنّ الماء مصدر الخلق وليس مصدر الحياة فقط؟ ألا يمكن القول إنّ السّماوات والأرض فتقتا من مصدر واحد هو الماء؟ لذلك عبَّر القرآن عن حالها قبل الخلق بمصدر لغوي تضمّن في دلالته على الحدث دون الزمن، حالة السّكون التي كان عليها ذلك المصدر الكوني -الماء-وحين شاء الله للكون أن يكون أخرجه من حالة السكون وأوجد منه السّماوات والأرض. إذا كانت هناك وحدة قائمة في الخلق بين الكون والكائنات الحية من حيث المادة، والكائنات الحية مصدر حياتها الماء، فما الذي يمنع أن يكون هو منشأ الكون؟

إنّ الله في هذه الآية يعبّر بدقة وبإيجاز عن المشهد الأول لخلق الكون، وعلى أصحاب التفسير العلمي أن يأخذوا بكلّ العناصر الدلالية في هذه الآية لأنّها تمثل مشهدا واحدا، فلا يجوز إسقاط أيّ عنصر منها بما في ذلك السّياق الذي جاءت فيه، وبما أنّ التفسير العلمي يتناول آيات معينة حسب الموضوع العلمي المطروق، فلا بدَّ من الأخذ بعين الاعتبار أثناء التّفسير كلّ الآيات التي تتحدث عن نفس الموضوع، لأنّ ما تفرزه كلّ آية من الدلالات يتصل بما تفرزه الأخرى؛ أولاً من باب المناسبة ثم من باب التفصيل أو الإيجاز أو الاعتبار، لذلك إذا كانت لدينا أسئلة حول هذا الوجود يجب أن نبدأ في البحث عن الإجابة عنها من القرآن الكريم، لأنّه يتضمَّن الحقيقة، ويتضمَّن المنهج المناسب لعرضها، ثم نقارنها بما توصَّل إليه العلم إن كان حقيقة وليس نظرية، فالانطلاق من التصورات العلمية ومحاولة تقصيها في النّص القرآني هو الذي يوقع الباحث في خطإ الإسقاطات العلمية، ظنا منه «أن مواءمة القرآن الكريم للعلم التجريبي لا تتحقق إلاّ بتتبع جزئيات الحقائق العلمية وأفرادها وربطها بالإشارات القرآنية، مع

أنّ مواءمة القرآن للعلم التجريبي متحققة بالمنهج العلمي الاستدلالي وطريقة التفكير النقدي التي يقررها القرآن، ويشهد على ذلك انسجام القضايا الكلية الكبرى في القرآن مع معطيات المنهج العلمي المعاصر»[1].

إنّ معطيات القرآن حول نشأة الكون عرضها القرآن بأسلوب معجز جمع بين الإيجاز والدقة، إيجاز تطمئن له الفطرة، وتبتلى به عقول النخبة. إنّ القرآن يقدّم لنا هذه الحقائق في صورتها النهائية كما يراها العام والخاص، حتى يهتدي بها الإنسان إلى وجود الله، ويعرضها صورا مجزأة للاستدلال بها على قدرة الخالق وحكمته، فلا يجب على الإنسان أن يتعامل مع القرآن تعامله مع الكون، فيسقط عليه النظريات والتجارب، فيكون بذلك قد حاول دون قصد منه إخضاع النص لسلطة العقل، وإن كان الخطاب القرآني موجها للعقل، فمعنى ذلك كما يقول سيد قطب: « أنّه وإن كان يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلاّ الإذعان. و يخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة. ويخاطب العقل أنّه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه.. فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلاّ التسليم بها فهو مؤمن، أو عدم التسليم بها فهو كافر.. وليس هو حكماً في صحتها أو بطلانها»[2].

والتّمكّن من فهم مدلولات الخطاب القرآني لا يكون إلاّ بامتلاك ناصية هذه اللغة التي اختارها الله لسانا له ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾[3]، فكان البيان بمفهومه الواسع الذي «يشمل الإفصاح والإظهار والإبانة عن كلّ ما يختلج في النّفس من المعاني والأفكار»[4]، خاصيتها التي أبرزها القرآن من خلال أساليبه في استعمالها، فالصوت فيه يوحي بظلال المعنى، والصيغة تبرز هيئة المعنى كما هو موجود في الواقع الحسي أو العقلي، ودلالة المفردة تكشف عن تواطؤ الأصوات في تشكيل معناها الأصلي ومناسبته لمعنى الآية، أمّا التركيب فهو يكشف عن الصورة، ويعكس الأزمنة المشكلة لها، والسياق يهدي إلى الغاية من مجموع ما سبق، والكلّ يجتمع على إقرار التوحيد.

1- كبرى اليقينيات الكونية،وجودالخالق ووظيفة المخلوق، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثامنة، سنة 1982م../03.

2- الوقفات الفكرية في ظلال القرآن. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2007م، ص383.

3- سورة الشعراء، الآية/195.

4- الإعجاز البياني في القرآن الكريم (دراسة نظرية في الآيات المحكمات)، عمار ساسي ، دار المعارف للإنتاج والتوزيع، البليدة، ط.الأولى، 2003م.ج/01، ص:167